عظة للأب ميشال عبود الكرملي
في القدّاس الشهري لأجل الراقدين على رجاء القيامة
بمناسبة الذكرى السنوية الاولى لانطلاقة جماعتنا في رعية مار مارون – الأنطونية

2015/2/14

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد، آمين

نحن، اليوم، نحتفل معاً بالذّكرى السّنويّة لجماعة "أُذكرني في ملكوتك" الّتي أخذت في روحانيتها، منذ نشأتها، منذ بضع سنوات، الصّلاة من أجل الرّاقدين، من أجل أمواتنا. عندما نقول موت، على الفور، يراود أذهاننا الحزن، أي الحزن على الفراق. وكما نعرف، الموت موجود عند كلّ إنسان أيّ عند كلّ كائن حيّ لأنّه ليس أزليّاً ولا أبديّاً وسيأتي يومٌ يموت فيه، على عكس كائن الجماد الّذي لا يعرف الموت لأنّه جامدٌ لا يتحرّك. يسوع صار إنساناً ومات ولكن، مع المسيح، تغيّرت الفكرة عن الموت. قبل مجيء المسيح، كانت تُكتب على قبر الميت عبارة "هنا يرقد في ظلمة الموت" أمّا بعد مجيئه فصارت تُكتب عبارة "هنا يرقد على نور رجاء القيامة". لا يضع الموت حَدّاً لحياتنا ولكن لِعمرنا الأرضيّ، فالحياة الحقيقيّة هي ما بعد الموت. من غير المسموح أن يقول إنسانٌ مسيحيٌّ أنّ لا أحد من الّذين ماتوا قام وأخبرنا عن هذه الحياة، بل هناك من قام وأخبرنا، فنحن أبناء الرجاء ، نحن أبناء الحياة. ويسوع نفسه هو أوّل من أخبرنا.

هناك مَن يُخبر عن "فرنسوا ميتران"، أحد الرّؤساء الفرنسيّين، الّذي كان مسيحيّاً وصار مُلحِداً كما الكثيرين غيره. وقد عاد إلى ذاته عندما أخبره طبيبه أنّه تبقّى له ستّة أشهرٍ قبل أن يصل إلى الموت، وسيعيش خلالها صراعاً مع الألم ولن يستطيع المال الّذي يملكه، أو الأشخاص الّذين يعرفهم مهما علا شأنهم أو حتّى الدّواء، أن يُبعدوا عنه الموت. عندما علِمَ الرّئيس بمواجهة الموت، لجأ إلى أحد الفلاسفة "جان فيتون" ليسأله عمّا يوجد بعد الموت، فدخل الفيلسوف إلى مكتبه وجلب الإنجيل قائلاً له بأنّه عليه أن يقرأه، فيسوع سيُجيبه عن تساؤلاته. يُقال إنّه أمضى الأشهر المتبقيّة من حياته وهو يقرأ الإنجيل، وقد طلب أن يُدفن في مقابر كنيسة رعيته بعد أن تتمّ مراسم الدّفن بحسب الأصول. إذاً، إذا قرأنا الإنجيل سنفهم أنّ يسوع جاء ليقول لنا أمراً واحداً وهو "أنتَ، يا إنسان، ابن الله ومدعوٌّ إلى ملكوت السّموات" فجاء تلاميذه إليه قائلين له: "باسمك طردنا الشياطين، باسمك تنبأنا، باسمك عملنا المعجزات".. فلم يطلب إليهم تقريرًا بما فعلوه بل طلب إليهم أن يفرحوا لأنّ أسماءهم مكتوبةٌ في السّماء. نفهم، ساعتئذٍ، أنّنا لسنا أشخاصًا خُلِقنا لكي نكون ترابًا للقبور، فالكائنات الحيّة غير الإنسان تصير تراباً.

نحن وُلِدنا بالمعموديّة كما قال يسوع "إن لم يولد الإنسان بالماء والرّوح لن يدخل ملكوت السّموات" لقد خُلِقنا ومرَرْنا على هذه الأرض كي نكون، في ما بعد، معه في السّماء. ومن هنا نفهم أنّ الموت سيقرع بابنا بطريقة نجهلها ويأخذ منا، بِلحظات غير مُنتظرة، أشخاصًا لم نتوقّع رحيلهم، لذلك نحزن عندما نتكلّم عن موتنا أو عن موت مَن نُحبّ. إذاً، علينا عندما نفكّر في السماء أن نتعلّق بالأرض لأنّنا نعيش عليها مرّة واحدة. عليك أن تعيش حياتك الحيويّة على الأرض كلّ يوم كأنّه اليوم الأوّل لتشعر بالدّهشة

وكأنّه اليوم الأخير، فتعرف أنّ كلّ ما على هذه الأرض من خيرات باقٍ هنا، لأنّ كلّ ما على الأرض هو فانٍ. إذاً هكذا تعيش حياتك على الأرض بعمق.

القدّيسون هم الّذين ماتوا وعادوا فأخبرونا عن الحياة ما بعد الموت. فعندما ننظر إلى القدّيسين نرى مثلاً أنّ مار شربل لو بقيت حياته على الأرض لما استطاع أن يقوم بالعجائب. هؤلاء الأشخاص الّذين عاشوا مع الله على الأرض وماتوا جسديّاً فقط يقومون بأعمال الله وبعجائب لا يستطيع العِلم أن يُفسّرها، وبهذا نتأكّد من أنّهم أحياء وبالتّالي أنّ هناك حياة بعد الموت. علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا لم يفكروا في الله بل في الإنسان فقط، فقالوا إنّ الإنسان يُصبح مثل الحيوان تنتهي حياته على الأرض لو لم يكن هناك حياة بعد الموت. فنرى أنّ الحيوان، من الوقت الّذي يُخلق فيه حتّى موته، لا يتطوّر. وحده الإنسان تطوّر لأنّه كائن البعد، عندئذٍ، فهموا دينيًّا أنّ الله حين خلق الإنسان نفخ في روحه، كما يقول الكتاب المقدّس، فالإنسان يأخذ روحه من روح الله الخالد، الأبديّ لذلك روح الإنسان هو روح أبديّ وهذا ما يجعلنا نقف أمام ذاتنا.

السؤال الذي نطرحه إن كنّا نشارك في القدّاس ونصلّي دائماً، فإذا سألتُ من منّا سيصعد إلى السّماء؟ يكون جوابكم بأنّكم لا تعرفون، وهذا جواب غير مقبول. فالمسألة ليست لعبةً أو (يانصيب) لأنّ هناك ما يجب أن يتربّى وينمو في إيماننا المسيحي. نحن نتحلّى بثلاث فضائل هي فضيلة الإيمان، فضيلة المحبّة وفضيلة الرّجاء. الإيمان بالله وهذا الإيمان أنا لا أراه، إلّا من خلال إيمان الكنيسة ومن الفكر المنبثق من الإنجيل الّذي دُوّن بنعمة الله، أؤمن أنّ الله حاضر. المحبّة الّتي لا تنتهي أبداً، كما يقول لنا القدّيس بولس هي أبديّة. والرّجاء هو أنّ الله نفسه الّذي دعاني إلى الحياة دعاني إلى السّماء أحياناً يتشاجر الآباء مع أولادهم بسبب الميراث فيحرمونهم منه. أمّا مع الله فالوضع مختلف. نحن موعودون بالسّماء لأنّنا شركاء في ميراث الله وهذا ما قاله القدّيس بولس. لذلك نحن نكبر على أساس الرّجاء فنسير إلى الله على الرّغم من ارتكابنا الخطايا، من ضعفنا، من تخاصمنا مع بعضنا البعض. فإذا عاد أولادكم إلى المنزل بثياب مُتّسخة ألا تستقبلونهم؟ طبعاً تستقبلونهم. يقول لنا يسوع: "إذا أنتم البشر تعرفون أن تُعطوا العطايا الصّالحة لأبنائكم فكيف بالأحرى أبوكم الّذي في السّموات" عندئذٍ عندما نذهب إلى الله سيستقبلنا.

هذا هو السّؤال الّذي يُطرح: هل أنتَ، فعلاً، تعيش مع الله أو أنّك تعيش على هامش الحياة؟ علينا أن نعيش مسيحيّتنا بعمق. هنا ترَوْنَ لماذا نُقدّم القرابين على نيّة أمواتنا ولماذا نقدّم القمح في أعياد القدّيسين الشّهداء. فيقول لنا يسوع عن حبّة القمح: "إنّ حبّة الحنطة إن لم تقع وتمت تبقى واحدة وإن ماتت أعطت ثماراً كثيرةً". لذلك أمواتنا كلّهم هم مع الله وهنا، علينا فقط معرفة كيف نقرأ سفر الرّؤيا الّذي يُخبرنا عن الحياة الجديدة فيقول إنّ هناك سماءً جديدة وأرضًا جديدةً، يمسح كلّ دمعة من عيونهم، فلا يبقى للموت وجود، كلّ شيء يزول، الله وحده يبقى. عندئذٍ هناك ما يكبر في قلوبنا فنفهم أنّنا نولد من السّماء ونمرّ في الحياة.

هناك قصصٌ نشاهدها عبر التّلفزيون أو نقرأها في الكُتُب ولكن هناك قصصٌ نستخرجها من الواقع. فمثلاً منذ سنة تقريباً طلبت منّا امرأة أن نزورها في بيتها فلبّينا طلبها. كان ابنها متفوّقًا وقد حصل على منحة جامعيّة عاليةٍ إلى فرنسا لِمدّة ثلاث سنوات. في السّنة الثّانية، تعرّض لحادث سيْر وتوفي. كانت تشكر الله على أنّها ربّت ابنها على الصّلاة فعندما وصل إلى جامعته سألته، أوّلاً إن كان هناك كنيسة قريبة من بيته وإن كان يذهب إليها ويشارك في القدّاس ويتناول القربان المقدّس. إذاً هي ربّته على الصّلاة كي لا يكون على هامش الحياة، كي يكون مع يسوع، الرّب يسوع يسامح في الحياة.

في عرس قانا الجليل، عندما قالت مريم ليسوع إنّ الخمر قد نفِدَ لم يقل لها إنّ الخمر يجعل النّاس سكارى ومن الأفضل أن يعودوا إلى بيوتهم بل حوّل الماء إلى خمر. كانوا يدعونه إلى العشاء وكان الأطفال يُحبّونهوكان يعرف كيف يتكلّم مع الكبار ومع الصّغار. عندما قالوا له إنّ هيرودوس يريد أن يراه قال لهم "قولوا لهذا الثّعلب" وعندما تحدّاه الكتبةالفريسيّون قال لهم "يا أولاد الزانية". في أماكن معيّنة، عرف يسوع كيف يعيش والرسالة المسيحية هي أن يعرف الإنسان أن يعيش معه، فإذا عرفنا ورغبنافي أن نعيش، هنا، مع الرّبّ، سنتابع عيشنا معه في السّماء. هذا ما كتبه، أيضًا، أحد الفلاسفة "جان فيتون" في آخر حوار له مع" فرنسوا ميتران" الّذي تأنّى في قراءته للإنجيل وعاد إليه ليسأله عن سبب وجود الجحيم فأجابه لأنّ الله محبّة ولأنّ المحبّة تفترض الحريّة. فالله يُحبّك ويُعطيك حريّة الاختيار. فإذا اخترت بملء حرّيتك أن تعيش معه على الأرض ستتابع بملء حريّتك عيشك معه في السّماء أمّا إذا قرّرت ألّا تعيش معه على الأرض فلن تعيش معه في السّماء. وعدم العيش مع الله هو الجحيم.

وهنا نتساءل إن كان من الممكن أن يكون الله يحبّ البشريّة ويضع أولاده في الجحيم. لا يضع الله أحداً في الجحيم بل هو خلقنا للسّماء وإذا قرأنا الإنجيل الّذي تأمّلناه منذ بضعة أسابيع خلال أسبوع الأبرار والصّدّيقين، عندما أتى الدّيان على العرش، أي المسيح، قائلاً: " تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم، لأنّي جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فآويتموني..." متى 25: 34 وهذا ما تعتمد عليه جماعة "أُذكرني في ملكوتك" في أعمال المحبة من خلال ما تجمعه لمساعدة الفقير على نية أمواتنا، (جرة لعازر أو جمع صينية أوصندوق للفقير). ويُكمل الدّيان، أي المسيح، قائلاً للآخرين:"إذهبوا إلى النّار الأبديّة المعدّة لإبليس" وليس لكم ولكن، إذا أنتم أردتم أن تكونوا جنود إبليس فكونوا. وإبليس هو الّذي يُبعد النّاس عن اللهويُبعدهم عن بعضهم البعض. هنا تأتي جماعة "أُذكرني في ملكوتك" الّتي بدأت منذ سنة، تُصلّي في هذه الرّعية من أجل راحة أنفس أمواتنا، لكي نتذكّر أنّنا عندما نصلّي معها نتّحد معها. ففي كلّ قدّاس، بحسب الطّقس الماروني، تذكار للأموات، مثل النّوايا، لكي نتّحد معهم لأنّهم مع الله، فعندما نلتقي بالله في القدّاس نلتقي بهم، ولكن نحن ما زلنا محدودين، أمّا هم فقد أصبحوا مع الله الّذي لا يحدّه لا زمان ولا مكان. وكتابة أسمائهم في السّجل هي علامة لأسمائنا. هكذا قال لنا يسوع: "إفرحوا لأنّ أسماءكم مكتوبة في السّماء" في سفر الرؤيا. لذلك نحن مع جماعة "أُذكرني في ملكوتك" لا نفكّر في الموت بل نترجّى على الرّجاء. فالتّفكير في الموت يعني التّقوقع في الحزن. يقول القدّيس يوحنا بولس الثّاني: سنعبر الى الحياة الثّانية وعيوننا مفتوحة.

يُخبرون عن الاسكندر وهو على فراش الموت أنّه طلب أن يُحضّروا دفنه بوضع كلّ ما يملك من الذّهب على الصّفيْن من باب القصر حتّى باب القبر. وعندما يضعونه في النعش طلب إليهم أن يمدّوا يديه إلى خارجه لكي يرى النّاس أنّه سيموت ويداه فارغتان وكلّ ما يملكه سيبقى على هذه الأرض. وفي المقابل، نرى أحياناً الإخوة يتخاصمون بسبب مِتْرٍ من الأرض. تقول الطّباويّة إليزابيت للثالوث: لقد وجدتُ سمائي على الأرض لأنّ سمائي الله والله موجود في قلبي وأريد أن أبوح بهذا السرّ إلى أحبابي". في كلّ مرّة نعود إلى ذاتنا، نعود إلى السّماء، وفي كلّ مرّة نتناول القربان المقدّس نفتح أبواب السّماء لأنّ المسيح قال: "من أكل جسدي له الحياة الأبديّة له المجد إلى الأبد" آمين.

ملاحظة: دُوّنت العظة من قبلنا بتصرّف